جامعة محمد الأول

الكلية متعددة التخصصات

الناظور



مسلك الدراسات العربية- الفصل الثاني

وحدة الشعر القديم

الأستاذ د.أبو عبد السلام الإدريسي

تحليل أنموذج من الشعر الجاهلي

السنة الجامعية: 2014ـ2015

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فهذه دراسة لقصيدة امرئ القيس التي مطلعها:

"قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم عفت آياته منذ أزمان".

تمهيد:

الشاعر هو امرؤ القيس بن حُجْر بن حارث بن عمرو بن حُجْر آكل المُرار بن معاوية بن ثور؛ وهو كندة، وأمه: فاطمة بنت ربيعة أخت مهلهل وكليب التغلبيين. ومعنى امرئ القيس: رجل الشدة، وقيل إن "القيس" من أصنام الجاهلية. ويكنى بأبي زيد وأبي الحارث، ويلقب بالملك الضِّلّيل وذي القروح. ولا تعرف سنة مولده، ويُظَنُّ ظنّا أنه ولد سنة 497م، وقيل 500م، وقيل 520م، ورجح شوقي ضيف أنه ولد في أوائل القرن السادس للميلاد.

وقد أقام جده ملكا في قبائل نجد في أواخر القرن الخامس، وامتد ملكه إلى الحيرة، وعندما تفاسدت قبائل نزار أتاه أشرافهم وشكوا إليه ما نزل بهم، ففرق أولاده في قبائل العرب، فملّك حُجْرا (والد امرئ القيس الشاعر) على أسد وغطفان، وبقوا على ذلك إلى أن مات أبوهم، فتداعت القبائل وثارت على ملوكها. ويحكى أن امرأ القيس عندما بلغه خبر مقتل أبيه قال: ضَيّعني صغيرا، وحمّلني دمه كبيرا، لا صحو اليوم، ولا سكر غدا، اليوم خمر، وغدا أمر. ثم شرب سبعا، ثم آلى أن لا يأكل لحما ولا يشرب خمرا ولا يدهن بدهن، ولا يقرب النساء، حتى يدرك ثأره.

وقيل أنه توفي ودفن في أنقرة، في سفح جبل يقال له عسيب، سنة 538 للميلاد، وقيل إنه مات سنة 565م، ويرجح شوقي ضيف وفاته بين سنتي 530م و540 م.

أهمية شعره:

امرؤ القيس أمير الشعراء العرب، وصاحب لوائهم، وكبيرهم الذي يقرون بتقدمه، وشيخهم الذي يعترفون بفضله، وإمامهم الذي يرجعون إليه، و لم ينل شاعر عربي ما ناله امرؤ القيس من شهرة واهتمام. وظل شعره في العصور اللاحقة المثال المحتذى والأنموذج المعتمد، وظلت التقاليد الفنية التي ابتكرها والطرائق التي اخترعها في صناعة الشعر مسيطرة على الشعر العربي عصورا متطاولة. وظل ديوانه تراثا يتناقل ويروى ويتدارس ويشرح. وقد عني النقاد القدماء بشعر امرئ القيس ودائما كانوا يقدمون شعره على شعر غيره، والعلماء بالشعر يقولون إن امرأ القيس سبق شعراء العرب إلى أشياء ابتدعها واتبعه فيها الشعراء؛ مثل ذكر الديار والوقوف عليها، والبديع الذي أبدعه، والتشبيه الذي أحدثه، والتلميح الذي تجد في شعره، والتصرف الكثير الذي تجد في قوله.. وقد أولى الرواة عناية بالغة لشعره، واستظهروه في الصدور، وتناشدوه في المحافل والمجالس، والأسواق والمجامع، والبوادي والحواضر، وصار شعره على كل لسان.

شرح وتحليل القصيدة:

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان   وَرَسْمٍ عَفتْ آياتُه مُنذُ أزْمَانِ

أتت حججٌ بعدي عليها فأصبحت   كخطٍّ زبور في مصاحف رهبان

ذكَرْتُ بها الحَيَّ الجَميعَ فَهَيّجَتْ   عقابيل سقم من ضمير وأشجان

فَسَحّتْ دُموعي في الرِّداءِ كأنّهَا   كُلى ً من شَعِيبٍ ذاتُ سَحٍّ وَتَهْتانِ

إذا المرءُ لم يخزُن عليه لسانه   فَلَيْسَ على شَيْءٍ سِوَاهُ بخَزّانِ

يستهل الشاعر قصيدته باستوقاف صاحبيه -ومخاطبة الاثنين صيغة شعرية ابتدعت في العصر الجاهلي واتبعت في بقية العصور الأدبية- ليبكيا معه من تذكر حبيب كان بهذه الديار، لما عرف من علامات الدار التي تغيرت رسومها ودرست آثارها، بفعل توالي السنوات وبعدها أهلها بالأنيس، فأصبحت كخط الكتاب في الخفاء والدقة؛ ويشبهون الآثار بالكتاب لأنها تدل على مواضع الديار وتبينها كما يدل الكتاب على المعنى المراد، ويعبر عنه مع دقته وصغر حروفه. وخص مصاحف الرهبان بالذكر، لأن الكتابة كانت منتشرة بين أهل

الكتاب من النصارى واليهود، بينما كانت قليلة بين العرب، فلم يعرف لهم كتاب مجموع بين دفتين قبل القرآن الكريم، إلا ما كان من صحائف متفرقة يوثقون فيها عقودهم ومواثيقهم. وهذه الرسوم ذكرته بالقوم المجتمعين زمن متربعهم، مما هيج عليه بقايا (عقابيل) علته وقواها من مشاعر الحب والشوق والأشجان التي كان منطويا عليها إلى أن هاجه نظره إلى هذه الرسوم فأظهرها و لم يستطع إخفاءها، فسالت دموعه وانصبت صباب الماء من رقعة في سقاء بال (كلى من شعيب) فكأنها غلبته فلم يملكها، وهذا الحزن الشديد ملك عليه كيانه فأراد أن يسترسل في الكشف عن هذه المشاعر المكنونة في صدره ويعلن عنها، ويريد أن يبوح ولكنه يحجم، ويقرر أن يكتم سره لأن المرء إذا لم يحفظ عليه سره فهو أحرى ألا يحفظ سر غيره، وكنى باللسان عن السر.

وقبل أن أكمل شرح وتحليل بقية الأبيات لا بد من كلمة عن الوقوف على الأطلال:

وصف الأطلال، والوقوف على الديار وبكاء أهلها، تقليد شعري استهل به الشعراء قصائدهم. وأول من وقف على الديار شاعر ذكره امرؤ القيس في قوله:

عوجا على الطلل المُحيل لعلّنا نبكي الديار كما بكى ابنُ حذامِ

ثم تبعه امرؤ القيس فصور ما يحس الإنسان في وقوفه من حزن وأسى لفراق الحبيب، ثم أنشد الشعراء الجاهليون بعد امرئ القيس شعرا كثيرا في الوقوف على الديار، والبكاء على الأطلال. وسار الشعراء الإسلاميون على خطى الجاهليين في الإكثار من شعر الوقوف على الأطلال. واتبعهم على ذلك شعراء العرب في العصور الأدبية التالية. فما تفسير هذا الشكل الذي اتخذته القصيدة القديمة؟

يقوم النقد الاجتماعي للأدب على أساس العلاقة بين الأديب والبيئة، فالأدب لا ينشأ من فراغ، وإنما هو نتاج إنسان يعيش في زمان معين ومكان معلوم، فهو متأثر بهما أراد أو لم يرد، أدرك ذلك أم غاب عنه. وليس هناك أدب نعرفه يُبِين عن هذه الحقيقة أفضل من الأدب الجاهلي، فهو كالمرآة يعكس لنا حياة العصر في قوة ووضوح بخيرها وشرها. والشكل الذي اتخذته القصيدة الجاهلية مرتبط بالحياة التي عاشها مقصدو القصيد، نابع منه؛ فالماء عماد الحياة في الصحراء القاحلة الشحيحة بالقوت، تتتبع القبائل مصاب الغيث زمن الربيع، وتتلاقى عند أماكن تجمعه حيث تتفجر الحياة من موات الأرض وتسود الطمأنينة والدَّعة، ويتصادق أفراد القبائل المجتمعة حول الماء وتنمو أواصر حب بين الشباب والفتيات. ثم يأتي اليوم المحتوم الذي لا مهرب منه

ولا محيص عندما ينضُب الماء أو يكاد، وتأخذ معالم الحياة في الاختفاء، فتتفرق القبائل كل في طريق، وتنطوي قلوب المحبين على ألم ممضّ، ويمضي حين من الدهر، ويمر المحب (الشاعر) بالمكان الذي استمتع فيه بلذة الحب فيقف يتأمل أطلاله ورسومه فتروعه وحشته، وتبعث في نفسه كوامن الأسى. ولكنْ وتد هنا وأَثَافِيّ ونُؤْي هناك تثير ذكرى خوالي الأيام، فيرتد الماضي حيا ماثلا أمام عينيه، وتتراءى له محبوبته فيسعده تذكرها ويخفف من أساه فيصف (يشبب) حسنها وشعوره حيالها.

فإما تريني في رحالة جابر ... على حرج كالقرّ تخفقُ أكفاني

فَيا رُبّ مَكرُوبٍ كَرَرْتُ وَرَاءَهُ ... وعانٍ فككت الغلّ عنه ففداني

وَفِتيانِ صِدْقٍ قد بَعَثْتُ بسُحرَة ... فقاموا جَميعاً بَينَ عاثٍ وَنَشْوَانِ

وَخَرْقٍ بَعِيدٍ قد قَطَعْتُ نِيَاطَهُ ... على ذاتِ لَوْتٍ سَهوَةِ المشْيِ مِذعانِ

وغيث كألوان الفنا قد هبطتهُ ... تعاورَ فيه كلّ أوطفَ حنانِ

على هَيكَلٍ يُعْطِيكَ قبلَ سُؤالِهِ ... أفانينَ جري غير كزّ ولا وانِ

كتَيسِ الظّباءِ الأعفَرِ انضَرَجَتْ له ... عقابٌ تدلت من شماريخ ثهلان

بعد أن أثارت رسوم الديار كوامن نفسه، يتراءى له شبح خليلته ماثلا أمام عينيه، فيخاطبها واصفا حاله في المرض وهو محمول على خشبات كالنعش صنعها له جابر التغلبي لما اشتد عليه المرض، والريح تخفق ثيابه التي صيرها أكفانا لشدة مرضه حتى استيقن الموت. ولكن حالة الضعف والعجز هذه لم تكن يوما من صفاته؛ فيسترسل بعد ذلك في ذكر خصاله ومكارمه أيام الصحة والعافية. فكم من مكروب رجع إليه وقد أحاط به العدو وقاتل عنه واستنقذه، وكم من أسير فداه بماله فحُلّ وثاقه وسُرّح، وإن كان أسيره منّ عليه وأطلقه، وقوله ففداني أي قال لي : فديتك بنفسي. وقد وصف نفسه بخصال الكرم والشجاعة والبذل والعطاء ومساعدة الغير، وهذه الصفات كانت العرب تفخر بها وتعدها شرطا أساسيا في الفروسية والرجولة. ثم يصف

صحبه وهم فتيان صدق شبان كرام أثارهم من نومهم ونبههم من نعستهم بسُحرة، وهو أول الأسحار، فقاموا بين عاث ونشوان؛ والعاثي الذي يطلب الشيء في الظلام بيده من غير أن يبصره، كما يفعل الأعمى، النشوان أي كالسكران من النعاس، وهذا تشبيه موجز حسن حيث يصور لنا مشهدا مفعما بالحركة بكلمتين (عاث ونشوان)، وهذه من روائع البيان باللفظ واللفظين.

ثم ينتقل لوصف رحلاته وما يرتبط بها من وصف للناقة والفرس والبلاد التي مر بها أو نزل بها، فيقول: وإن كنت قد صرت في هذه الحالة من الضعف والعجز وقلة الحركة فكم من بلد موحش وقفر نازح قطعت نياطه (أي بُعده) على ناقة صلبة اللحم سهل مشيها مطاوعة لما يراد منها. ويصف كلأ نزل فيه ورعى إبله (وسماه غيثا لأنه عنه يكون)، وشبهه بالفنا وهو شجر فيه خضرة وري وجدة، وقد أينع وأزهر لتداول الأمطار عليه، وقد هبطه على فرس ضخم طويل شبهه بهيكل النصارى (وهو البناء المرتفع)، يعطيه من ضروب الجري ما لا يطلبه منه غير ضنين ولا فاتر مبطئ، وشبه سرعته بسرعة فحل الظباء الأعفر (بين الحمرة والغبرة) وقد نزلت عليه العقاب من أعالي الجبال فذعرته، وذلك أسرع له وأنشط.

وَخَرْقٍ كجَوْفِ العيرِ قَفرٍ مَضَلّة قطعتُ بسام ساهِم الوجهُ حسان

يدافعُ أعطافَ المطايا بركنه كما مال غصْنٌ ناعمٌ فوْق أغصَانِ

وَمَجْرٍ كَغُلاّنِ الأنَيْعِمِ بَالِغٍ دِيَارَ العَدُوّ ذي زُهَاءٍ وَأرْكَانِ

مطوت بهم حتى تكل مطيهم وحتى الجياد ما يقدن بأرسان

وَحَتَّى تَرَى الجَونَ الَّذي كانَ بادِناً عَلَيْهِ عَوَافٍ مِنْ نُسُورٍ وَعقْبانِ

ويستمر شاعرنا في التغني بذكرياته، ويسترسل في الحديث عن المفاوز والقفار الموحشة المُضِلّة التي لا يُهتدى فيها، وشبهها بجوف الحمار لأنه صيد لا ينتفع بما في بطنه، ويظلّ رفيقَه الوفي فرسُه الذي وصفه بصفات العلو والشرف وجمال الوجه، وشبه انعطافه بين الإبل وميله عنها يمينا وشمالا بالغصن الناعم الذي يتثنى بين الأغصان.

ويستمر التغني في تحدّره، فيصف الجيش العظيم الذي قاده حتى بلغ بها ديار العدو، وقد شبهه في كثافته وكثرته بأودية الأنيعم (موضع) كثيرة الشجر، ومدد بهم السير وطوّل حتى أن الجياد من الإعياء والتعب لا تحتاج إلى أرسان تقاد بها (وقد كانوا يركبون المطايا من الإبل ويقودون الخيل ليوفروا قوتها ونشاطها)، حتى أن السمين من الخيل أضناه السفر حتى نفق واعتفته الطير ووقعت عليه تأكل من لحمه.

ووحدة القصيدة وحدة نفسية، هي وحدة الشعور والتذكار، فأبيات هذه القصيدة معقودة على تذكر شيء قد مضى، فتمثلت أمام عينيه صورته أيام صحته وقوته تتحرك وترتحل وتسافر، فأخذ يتغنى بهذا الماثل أمامه فاتسم غناؤه بالحركة. وألفاظ القصيدة مشعرة بالحركة وتراحبها وتتباعها، خاصة الجمل الفعلية ؛ مثل: كررت وراءه... فككت... بعثت... قطعت نياطه...هبطته.. قطعت بسام.. مطوت بهم.. وغيرها من الجمل التي تشعرك بتدفق الأحداث .

ووصفه لرحلاته يتضمن فيضا من الحركة بعد الحركة، نستشفها من قراءة ما بين السطور، فمنذ أن يتأهب المرتحل لرحلته، ويتهيأ لسير الليالي والأيام في البيد المجاهيل، وينفذ في قلب المهالك التي تغتال مقتحميها، ثم لا يزال يفجؤه منها ما لا يتوقع، من عصف الرياح السوافي، إلى خوف الضلال في ظلمات لا يهتدى فيها بنجم ولا علم، ومن غوائل الشر إلى عوادي الوحش، ومن اندفان الماء وفناء الزاد، إلى هلاك الرفيق وعطب الظهر (موت الركائب)، من خوف إلى خوف، ومن ضياع إلى ضياع. فالحركة في الرحلة حركة مستفيضة لا تنقطع في ليل ولا نهار، حركة بدن بالسعي والدؤوب، وحركة نفس بالتوقع والتوجس، وحركة عقل باليقظة والتنبه، وحركة رأي بالنظر والتدبر، وحركة إرادة بالجرأة والمضاء.

ولا يخفى أن الشاعر يفخر بنفسه ويمدح خصالها لما يتطلبه السير في البيد والفيافي من صفات لازمة لمرتكب السير في البيداء: من جرأة ومضاء، ومن حذر ويقظة، ومن حزم وحصافة. ويجتاب مهالكها ثم ينسل منها سالما، فهو الدليل الخِرِّيت الذي لا يضل (وخرق كجوف العير قفر مضلة قطعت...).

خاتمة:

وتمتاز هذه القصيدة بأنها مظهر للبلاغة العربية، لما فيها من أساليب البيان، ومناهج الأداء وصور التعبير، وألوان الرسم والخيال والتفكير، فيها تشبيهات بليغة عذبة كثيرة واستعارات جميلة بالغة، وكنايات أنيقة ساحرة، وسوى ذلك من أدوات التعبير والبيان. ومعانيها قريبة لا تعقيد فيها تتكئ على الحس والمشاهدات.

وقد اشتملت القصيدة على أغراض وهي الوقوف على الديار والبكاء الأحباب، ثم وصف رحلاته وما يدخل فيه من وصف الناقة والفرس والبيداء، وكل ذلك معقود على تذكر شيء مضى وانقضى.

المصادر والمراجع:

1. ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة-مصر، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ.
2. ديوان امرئ القيس ملحقاته، شرح أبي سعيد السكري، دراسة وتحقيق: أنور عليان أبو سويلم ومحمد علي الشوابكة، مركز زايد للتراث، العين-الإمارات العربية، ط 1 1421هــ-2000م.
3. شعر الوقوف على الأطلال، عزة حسن، بدون دار نشر، دمشق 1388هــ- 1968.
4. الوحدة العضوية في القصيدة العربية القديمة، عادل سليمان حسن، دراسة منشورة في كتاب: دراسات عربية وإسلامية، مطبعة المدني، القاهرة – مصر،ط1 1403هــ- 1982م.